المستشرقون الراهلونه : ٢

الاستشراق في بلاد الانكليز

قبل مرغوليوث

لقد ضربت انكلترة في علوم الاستشراق بسهم وافر . وهي ، وان لم تكن السابقة الى هذه الدروس في اوربة ، الّا انها سريعاً ما نهضت الى مجاراة الدول الغربية في علوم الشرق . فاخرجت كبار المستشرقين العالمين منذ القرن السابع عشر ، وما اسماء ادمون كاستيل (E. Castell) وادوارد پوكوك (Pococke) الّا الشاهد المقنع على مساهمة الانكليز في هذه العلوم الجليلة .

عُرف كاستيل (١٦٠٦–١٦٨٥) ، اول اساتذة العربية بجامعة كمبردج ، بمعجمه المشهور الذي لم يقتصره على اللغة العربية ، بل توسّع فيه حتى جعله شاملاً للغات السامية ، ونشره سنة ١٦٦٩ ، بعد ان اشتغل في اعداده ثماني عشرة سنة . فاتى عمله الأوّل من نوعه ، وظلّ مدة طويلة مرجع الابحاث اللغوية السامية .

اما پوكوك (١٦٠٤–١٦٩١) استاذ العربية في جامعة اكسفرد ، فقد فاقت شهرته شهرة زميله الكمبردجي . درس العربية في بلاده فلم يكتفِ بذلك ، بل شاء مزيد تضلّع وتعمّق فقصد الشرق سنة ١٦٣٠ ، واقام في حلب خمس سنوات استفاد في اثنائها معارف واسعة ، ومخطوطات عديدة . وكأنّه أصيب بالاستشراق البلدي مع الاستشراق العلمي ، فما كاد يصل الى اكسفرد ويرتقي المنبر الجديد لتعليم العربية ، حتى رأيناه يزمع رحاله سنة ١٦٣٧ فيعود الى حلب ،

مستزيداً من المعلومات ومن المخطوطات كذلك ، قاضياً اربع سنوات في الدرس والتنقيب . حتى اذا كانت السنة ١٦٤١ رجع الى انكلترة حاملاً ، في جملة ما حمل ، شجرة تين نصبها في حديقة اكسفرد فكانت ، ولا تزال ، اول شجرة من نوعها في بلاد الانكليز .[1]

اما الآداب العربية فمدينة ليوكوك باول طبعة لكتاب «مختصر الدول» لابي الفرج بن العبري ، وبمجموعة من ٤٢٠ مخطوطة ، لا تزال في مكتبة اكسفرد هدفاً لابحاث العلماء ، وبمستشرق آخر هو كبير اولاده ادوارد پوكوك (١٦٤٨—١٧٢٧) . تسمّى باسم ابيه ، واقتفى أثره في اختصاصه .

◻

ويرى القرن الثامن عشر تقدّم الدروس الاستشراقية في انكلترة . فنشهد سيمون اوكلي (Ockley) (١٦٧٨ - ١٧٢٠) ، تلميذ پوكوك ، يدرّس العربية في جامعة كمبردج ، ويترك ترجمة انكليزية لحيّ بن يقظان . وتتنقل مع جورج سيل (Sale) (١٦٩٧—١٧٣٦) في درس العقائد الاسلامية ، فنطّلع على اول ترجمة اوربية كاملة للقرآن سنة ١٧٣٤ . وتنتقل مع السر وليم جونس (Jones) (١٧٤٦—١٧٩٤) الى بلاد الهند ، مؤلفاً في كلكوتا جمعية اسيوية ، بادئاً عهد الدروس السنسكريتية ، بعد ان نشر ترجمة انكليزية حسنة للمعلقات السبع . ونهيم على اثر بوركهارت (Burckhardt) (١٧٨٤—١٨١٧) السويسري الأصل من حلب ، الى مصر ، فالى الجزيرة العربية ، فالى مصر وشمالي السودان ، تاركاً مؤلفاً نفيساً في « البدو والوهابيين » و« رحلة نوبية » لا تقل نفاسة .

◻

اما القرن التاسع عشر فاهم من يمثل فيه الاستشراق الانكليزي لين (E. W. Lane) (١٨٠١—١٨٧٦) . مال منذ حداثته الى الشرق والاستشراق ، فركب البحر الى الاسكندرية سنة ١٨٢٥ ، فوصلها بعد شهرين ، واقام في

---

١) برنارد لويس في « المشرق العربي » ، لندن ، العدد ١١ (ايلول ١٩٦٠) ص ١٠ . وقد لخصنا عنه بعض المعلومات .

القاهرة ثلاث سنوات . ثم عاد اليها في رحلة ثانية فاقام فيها سنتين (١٨٣٣—١٨٣٥) . وقد استفاد في الرحلتين معارمات جمة واختبارات كثيرة سهّلت له تأليف كتابه المشهور في « اخلاق المصريين المعاصرين وعاداتهم » . ولعلّ أشهر ما ترك لين معجمه العظيم العربي - الانكليزي الذي انفق في سبيله ربع قرن ولم يتوفق الى اتمامه .

ونشأ الى جنب لين عدد من مستشرقي الانكليز ، اشهرهم في حقل الدراسات العربية بلُنت (W. S. Blunt) (١٨٤٠—١٩٢٢) الذي مال الى الاضطلاع بالحركات السياسية الناشئة في الشرق الادنى ، فاتصل بجمال الدين الافغاني وعرابي باشا ، وقضى آخر حياته في القاهرة لا يلبس الّا اللباس المصري ، ولا يتكلم الّا العربية . ثم شارل دوتي (Doughty) (١٨٤٣ ١٩٢٦) الرحالة المشهور الذي لا يزال كتابه عن رحلته الى بلاد العرب من اهم المصادر . وتوماس ارنولد (Arnold) استاذ الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، والمتوفى سنة ١٩٣٠ . وغي لو سترانج (Le Strange) صاحب « بغداد ايام العباسيين » و« بلاد الخلافة التركية » المتوفى سنة ١٩٣٣ ، بعد ان كُفّ بصره منذ السنة ١٩١٢ . وفي السنة نفسها توفي بيڤن (A. A. Bevan) ، ناشر « نقائض جرير والفرزدق » . ويجب ان نذكر لايل (Lyall) ناشر المفضليات ، ولين-پول (Lane-Poole) من كبار المؤلفين في التاريخ الاسلامي . وآخر من فارق هذا العالم منهم دواود صموئيل مرغوليوث .

داود صموئيل مرغوليوث

١٨٥٨-١٩٤٠

٧

لا مغالاة في القول ان مرغوليوث كان في اثناء الـ ٣٥ سنة الماضية ، إمام المستشرقين لدى العام والخاص في بلاد الانكليز. فانه بفضل منشوراته العلمية، وعلومه الواسعة ، وشخصيته البارزة ، والمركز الذي شغله في الجمعية الاسيوية الانكليزية (R. A. S.) ، كان يُعدّ في عالم الاستشراق باجمعه ، ممثل الدروس الشرقية في بريطانية العظمى. فضلًا عن ان مدة تدريسه تلك العلوم في جامعة اكسفرد الشهيرة قد طبّرت صيته في جميع الاوساط حتى الى اقاصي البلاد الاسلامية الشرقية ، وأدخلت اسمه في عالم الاسطورة.

ولد مرغوليوث سنة ١٨٥٨ . ونشأ في جامعة اكسفرد . فدرس فيها كغيره الآداب المدرسية القديمة. ولم يظهر براعته في اللغة العربية حتى نشر الترجمة العربية لكتاب اريسطو في الشعر سنة ١٨٧٨ . وكان ان هذا البحث لفت انظار المستشرقين فعيّن مرغوليوث استاذًا في الجامعة نفسها لتدريس اللغة العربية . وقام

حينئذٍ، فنشر نخبة من الابحاث العلمية اهمها ما نشره سنة ١٨٩٣ من مخطوطات البردي الموجودة في مكتبة اكسفرد الشهيرة (Bodleian Library).

واهتم بعد ذلك بان نقل الى الانكليزية قسماً من تفسير القرآن للبيضاوي، ورسائل ابي العلاء سنة ١٨٩٨، فبرهن على تضلّعه من اللغة العربية، وعلى براعة غير عادية في حلّ بعض الغازها العويصة.

وفي ١٨٩٦ تزوج مرغوليوث جنّي بابن سميث Jessie Payne Smith بنت العالم الشهير باللغة السريانية، فعاونها سنين طوالاً على نشر كتاب والدها «الكنز السرياني» (*Thesaurus Syriacus*). ومع هذا العمل فانه لم يكفّ عن متابعة ابحاثه الشخصية، فنشر منها عدداً من الدروس الانتقادية، في ما جاء في التوراة.

وفي ١٩٠٥ ظهر كتابه المعروف *Mohammed and the rise of Islam* اي «محمد وضحى الاسلام» نُشر في مجموعة *Heroes of the Nations* اي «كبار الرجال وابطال الامم» فلفت اليه انظار العالم واشتهر به المؤلف اختصاصياً في الشؤون الاسلامية. وتلاه بعد ذلك سنة ١٩١١ كتابه الآخر *Mohammedanism* اي «الدين المحمدي» ثم سلسلة من المحاضرات القيّمة في موضوع اتساع الدين المحمدي عند ظهوره (*Early developpment of Mohammedanism*) نشرت سنة ١٩١٤ مع عدد غير يسير من المقالات المختلفة في كثير من المجلات ودوائر المعارف (*Encyclopedies*) وقد نالت هذه الكتب الثلاثة استحساناً كبيراً لدى الجمهور وحازت نجاحاً باهراً، فكانت المثال الأعلى في بلاد الانكليز لما يصحّ قوله في هذه المواضيع. اما المستشرقون فلم يخلُ رأيهم من بعض الانتقاد. وهم، وإن كانوا يُجمعون الرأي على الاعتراف باقتدار المؤلف وعلمه المتين وسعة اطلاعه الغريبة في الشؤون الاسلامية، لا سيما في كتابه الثالث الذي جاء فيه بايضاحات وحلول جديدة لمسائل كانت غامضة من قبله، الّا انهم لم يرتاحوا لما كان يظهر في لهجته من الاستهزاء وقلة الاعتبار، مما اثار ايضاً غضب القراء المسلمين في الغرب والشرق. وهذا الروح كان يدعو الى التحفظ امام الآراء التي كان يُبديها، كلما كان الحكم منوطاً بشعور المؤلف ونظريته الخاصة.

وجاء كتابه الاخير في السنة ١٩٢٤ عن العلاقات بين العرب وبني اسرائيل (*Relations between Arabs and Israelites*) فعرضه للنقد نفسه مع ما جمع فيه من المعلومات الواسعة والوثائق المتينة من رقم حجرية وتقاليد أدبية قديمة.

ورغم ان المنتقدين كانوا اقل منه علماً ومكاناً، لم يلبث ان أثر انتقادهم في وضعيته، فعدّل موقفه نوعاً ما بالتدريج. وكان هذا العدول بيناً في رجوعه عما كتبه في مقالٍ نشره سنة ١٩٢٥ في مجلة الجمعية الاسيوية *J. R. A. S.* جاء فيه ان لا صحّة على الاطلاق للشعر الجاهلي[1]. وقد كان التعجب عاماً من هذا الرأي، وان لم يعبّر المستشرق عنه دائماً. واما نظريته في هذا الشأن فلم تكن راكزة على البراهين التي تقدمتها في المقال، ولكن على رأي خاصّ في النظم كان قد عرضه في كثير من مقالاته الاخرى. ومع انه لم يقرّ قطّ بأصلية الشعر الجاهلي ايّاً كان، فانه لم يبق على رأيه هذا بصورة جازمة، كما يتبيّن لنا ذلك من ملاحظة ابداها في مقال له في المجلة نفسها سنة ١٩٢٧ يلطّف فيها موقفه السابق.

شعر مرغوليوث بمواهبه الخاصة للاستشراق، وبنوع الابحاث التي توافقه، اثناء جهوده في تعريب بعض النصوص العربية وضبطها بالنشر. من ذلك ان ذاكرته كانت عجيبة تحضر له، دون عناء، المعلومات الواسعة التي جناها في مطالعاته السابقة. فكانت له بذلك معاوناً لأبحاثه ومنشوراته نادر المثال. واشتهر خاصة في هذا الحقل بنشره كتاب « معجم الادباء » لياقوت. استغرق منه عشرين سنة، من ١٩٠٧ الى ١٩٢٧. ولكن نشره لكتاب الرسائل لابي العلاء، وكتاب « نشوار المحاضرة » للتنوخي سنة ١٩٢١ كان ادلّ لدى المستشرقين على علمه ومقدرته. اما براعته في التعريب فكانت عظيمة تجمع بين دقة المعاني وسلاسة

١) من هذا المقال استقى الدكتور طه حسين نظريته المعروفة في كتابه « في الشعر الجاهلي ». والحقّ يقال ان النظريّين كليهما، المستشرق الانكليزي وتلميذه المصري، مدينان في ما في بحثيهما من نظرات معقولة لابن سلّام. راجع فؤاد افرام البستاني : الروائع ٣ (الطبعة الجديدة) ص ١٧-١٩

التعبير . تجلّى ذلك خصوصاً في تعريبه « كتاب الاخبار » لمسكويه سنة ١٩٢٠ و« نشوار المحاضرة » للتنوخي ، و« تلبيس ابليس » لابن الجوزي المنشور حديثاً في مجلة الثقافة الاسلامية (*Islamic culture*) .

اما خدماته لمجلة الجمعية الاسيوية الانكليزية *J. R. A. S.* فلا حاجة الى ذكرها . فالوسام الذهبي الذي اهدي له سنة ١٩٣٨ جاء اوضح دليل على ذلك . كان اولاً تكريماً لمهارته الجبارة في ابحاثه العلمية ثم شكراً لاتعابه المصروفة في خدمة الجمعية مدة ٢٠ سنة عضواً في مجلسها ثم نائب رئيس ، ورئيساً . وكان مرغوليوث عضواً في الاكاديمية الانكليزية ، ودكتوراً في الآداب من جامعة دورهام ، وعضواً في جمعية المستشرقين الالمانية . وقد زار مراراً الشرق الادنى فاستقبله هناك كبار المسلمين بالحفاوة الشرقية المعهودة ، رغم اختلاف مذهبه عن مذاهبهم . وعندما أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢٠ ، كان مرغوليوث من اول اعضائه الاجانب . وقد دعته جامعة كلكتا في الهند سنة ١٩٢٩ الى القاء محاضرة هناك .

كان مرغوليوث لا يضنّ بعمله وبوقته على احد . وكان كثير التشجيع لتلاميذه حتى كان يؤمّل منهم اكثر من المنتظر . وقد حقق البعض آماله بنجاحهم . وكان يبدو لمن لا يعرفه كاظم الوجه صارم الهيئة ، ولكن هذه الظواهر كانت تزول عند التقدم في معرفته ، فيجد فيه الجميع صديقاً ودوداً ورجلاً لطيفاً انيساً .

الرسم ١ : واجهة دار الآثار